الأبعاد الدلالية للبنية الصوتية في قصيدة (قلبي تفكّر لوطان) لمصطفى بن إبراهيم

Semantic Dimensions of the Phonological Structure in the Poem "My Heart Reflects on the Homeland" by Mustafa bin Ibrahim

دنيا بن قسمي*
المركز الجامعي بريكة. طريق امدوكال، بريكة،05001، الجزائر.
dounia.benguesmi@cu-barika.dz

سمير بن نابت
المركز الجامعي بريكة. طريق امدوكال، بريكة،05001، الجزائر.
samir.bennabet@cu-barika.dz

تاريخ الارسال2024/09/05	تاريخ التقييم2024/12/11	تاريخ القبول2024/12/15

الملخص

عني علماء اللغة العربية منذ بدايات التأليف بمسألة العلاقة القائمة بين الصوت والدلالة، فالفونيم وهو أصغر وحدة صوتية غير دالة يحمل دلالات ومعان حينما يدخل في تركيب الكلمة، واختيار فونيم دون آخر يكون لغايات تمييزية دلالية يحملها ويجسدها هذا الفونيم. تفطن الخليل بن أحمد الفراهيدي ومن بعده ابن حني، إلى طبيعة العلاقة القائمة بين الأصوات ومعانيها، بل وعقدوا لها فصولا في مؤلفاتهم، كما تسهم حركات الصوت من فتح وضم وكسر في مناسبة المعاني التي ترمز إليها، وقد تم اختيار قصيدة "قلبي تفكر لوطان والهالة" للشاعر "مصطفى بن إبراهيم" للتطبيق عليها انطلاقا من أن الفونيمات بحركاتها المختلفة وصفاتها تلعب دورا فعالا في ربط الكلمات بمعانيها.

الكلمات المفتاحية: الصوت؛ الدلالة الصوتية؛ الصوائت؛ الصوامت.

Abstract

Since the the early stages of writing, Arabic linguists have been concerned with the relationship between sound and meaning. The phoneme, the smallest non-

* المؤلف المراسل:

meaningful unit of sound, carries meanings and connotations when it enters into the structure of a word. Choosing one phoneme over another is driven by semantic distinctions that the phoneme carries and embodies.

Al-Khalil bin Ahmed Al-Farahidi and later Ibn Hani realized the nature of the relationship between sounds and their meanings, dedicating chapters to it in their works. The movements of the sound, such as fat-ha, damma, and kasra, also contribute to the appropriateness of the meanings they symbolize. The poem " My Heart Reflects on the Homeland and the Aura" by the poet "Mustafa bin Ibrahim" was selected for analysis based on the fact that phonemes, with their different vowels and characteristics, play an effective role in connecting words to their meanings.

Keywords: sound; phonetic connotation; vowels; consonants.

1. مقدمة:

يقصد بالتحليل اللغوي تفكيك الظاهرة اللغوية إلى عناصرها الأولية التي تتألف منها. وتتنوع طرق التحليل اللغوي تبعا لمتطلبات المستوى اللغوي الذي تنتمي إليه الظاهرة اللغوية المراد تحليلها؛ إلى المستوى الصوتي أو الصرفي أو التركيبي أو الدلالي، فتحليل الظاهرة التي تنتمي إلى المستوى الصوتي مثلا يختلف عن تحليل الظاهرة التي تنتمي إلى أحد المستويات اللغوية الأخرى كالمستوى الدلالي والتركيبي.

يحاول هذا المقال دراسة العلاقة بين الصوت والدلالة في نص شعري، منطلقا من فرضية مؤداها: أن الحالة النفسية للشاعر تؤثر في البنية اللغوية للنص، وتحليل هذه البنية يؤدي إلى فهم النص.

إن الدلالة الصوتية تُؤخَذُ من طبيعة بعض الأصوات التي تشكّل الكلمة حيث تستخدم لإظهار المعنى وفهمه، ولهذه الأصوات عناصر تتكون منها وهي صوائت وصوامت... حيث تصاحب الكلمة المفردة.

وللتأكد من صحة الفرضية طرح المقال الإشكالية الآتية: كيف تسهم الأصوات في إنتاج الدلالة؟

2. دلالة الصوائت القصيرة في القصيدة:

الصوائت القصيرة وهي ما يعرف بالحركات القصيرة التي قال عنها اللغوي "ابن جني" (ت 392 ه): «إعلم أن الحركات أبعاض حروف المد واللين، وهي الألف والواو والياء، فكما أن هذه الحروف ثلاثة، فكذلك الحركات ثلاثة وهي الفتحة والكسرة والضمة، فالفتحة بعض الألف، والكسرة بعض الياء، والضمة بعض الواو».[1]

إن الصوائت القصيرة حسب "ابن جني" هي جزء من الحركات الطويلة أو المدّ، فالفتحة بعضٌ من الألف، والضمة جزء من الواو، والكسرة جزء من الياء. ولهذه الحركات دلالات ترتبط بالكلمة المفردة، خاصة وأنه في حال النطق بها لا يعترض الهواء أيّ عائق أو حائل.

وتسمى أيضا المصوتات الصائتية وتتكون أساسا من الصوامت أو الحركات كالفتحة والضمة والكسرة؛ و"تعرّف الصوائت بأنها حركات طويلة أو قصيرة، تتميز عن غيرها بطريقة النطق، ففي التلفّظ بها يمرّ الهواء عبر جهاز النطق بطلاقة" [2]دون أن يعترضه عائق أو حائل، ودون أن يضيق مجرى الهواء تضييقا من شأنه أن يحدث احتكاكا مسموعا. وفي اللغة العربية ثلاث صوائت قصيرة وهي:

1. الفتحة: وتتميز بكونها وسطية منفتحة منفرجة.
2. الضمة: وتتميز بكونها خلفية منغلقة مضمومة.
3. الكسرة: وتتميز بكونها أمامية منغلقة منفرجة[3].

وللصائت القصير أكثر من وظيفة صوتية في اللغة، فعلى مستوى الحرف يقوم الصائت بدور فعّال إذ يجعل من الصائت مصوَّتًا، وعلى مستوى الكلمة فيقوم الصائت بدور الفونيم*.

1.2 رصد الحركات القصيرة:

الأسطر / الحركات		1 - 11	12 - 19	20 - 24	25 - 34	35 - 43
الفتحة	التواتر	74	23	38	34	68
	النسبة	75,51	51,11	63,33	60,71	67,32
الضمة	التواتر	08	08	06	17	15
	النسبة	8,16	17,77	10	30,35	14,85
الكسرة	التواتر	16	14	16	04	18
	النسبة	16,32	31,11	26,66	7,56	17,82

2.2 دلالة صائت الفتحة:

إن ما يلاحظ على النسب المدونة في الجدول أعلاه هو تنوع الصوامت القصيرة على طول القصيدة، ولكن بنسب متفاوتة، وأن الغلبة في كل المقاطع كان لحركة "الفتحة" التي وصلت إلى نسبة 75,51% على مستوى المقطع الأول، لما تمتاز به من نسبة عالية من حيث الوضوح السمعي، لذا لجأ إليها الشاعر لإفراغ أقصى دلالات الحب الممزوج بالحسرة، فالشاعر "مصطفى بن إبراهيم"** (ت 1867م) قد استهل قصيدته بعبارة: "قلبي تفكّرْ لُوطَانْ والهالَة"***، وهذه إشارة صريحة منه على أنه بعيد عن وطنه، فهو في غربة نفسية وروحية جسدتها المسافة الفاصلة بينه وبين وطنه عامة وبين مسقط رأسه "سْفِيزَفْ"**** خاصة. ويؤكد هذا الشوق والحنين بعبارة (**قلبي** تَخَبَّلْ بالوَحْشْ تَخْبَالَة)، والمفعول المطلق "تخبالة" الذي جاءت أغلب حركاته بالفتحة، تجسد عمق الشوق وتزيد من قوة وإبراز المعنى، فالشاعر يريد إيصال رسالته بوضوح وعمق وقوة، دون أن يعيقها أي شيء، وهو من مميزات حركة الفتحة التي تصدر بكل راحة واندفاع للهواء مع انفتاح كبير للمجرى الصوتي؛ وكذلك حال الشاعر، إنه يجنح إلى الفتحة لتصل رسالته دون ضعف أو تقطّع أو تشويش حتى لا

تؤثر على محتوى ومكنون الغاية التواصلية، التي يكون فيها المتلقي فعَّالاً باعتباره مشاركًا في العملية الإبداعية والبلاغية من خلال انجذابه وإدراكه للمعنى دون جهد.

3.2 صائت الكسرة:

ارتبط اسم الكسرة بدلالات كثيرة ومعبرة عن معناها؛ حيث نجدها بنسبة أعلى في المقطعين الثاني بنسبة 31,11% والمقطع الثالث بنسبة 26,66 %، فقد تناسبت مع دلالات الخيبة والألم والأسى، كما يحمل هذا الصوت دلالات البتر و القطع و الانفصال، مما زاد من الشوق والحنين إلى أرض الوطن، بكل ما تحمله من نكهة خاصة وطابع خاص، إذ يستهل الشاعر المقطع الثاني بعبارة (قلبي تفكر لوطان)، ليجدّد معاني الشوق والوحشة التي تملّكته وهو بعيد عن وطنه، فجاءت هذه العبارة مجملة من الناحية الدلالية، ليفصّل الشاعر بعدها ماذا تذكّره بالتفصيل؛ إذ تذكر الشاعر من الطبيعة "الزهور" التي لها رائحة خاصة في وطنه الحبيب، وتذكر أيضا "ركوب الخيل"، و"الفرسان"؛ حيث قال[4]:

قلبي تفكر لوطـــان الزهور وركوب الخيـــل
ارعيتي و الفرســـان خودات في حراج تميـــل
متحزّمين للّفّـــانْ شبان يلغو بكحيـــل

فهو يفتخر بفرسان وطنه، ويصف هيأتهم وشجاعتهم وبسالتهم، وكيف أنهم متأهبون للدفاع عن الوطن والتضحية بأرواحهم "متحزّمين للّفّانْ". كما تذكر الشاعر السهرات والتسامر تحت ضوء القنديل، ويأمل أن هذا "الزهو" والفرحة وهذه اللَّمة ستعود وستجدد حيث يقول[5]:

وتقاصر والإيـــوان وفرايج طول الليـــل
سبسي وكيف الدخـــان سهرات بضيّ القنديـــل

إلاّ أن دلالات الصائت الكسرة في المقطع الثالث جاءت تحمل دلالات أخرى، حيث جسدت الانكسار وما يمرّ به الشاعر من حالات متناقضة نتيجة الشوق وفراق الأحبة، مما انعكس حتى على بنيته الجسدية، وأكد ذلك من خلال الفعل "هَسِّيتْ" أي أصبح "نحيلا" وسبب نُحوله شرحه وفصّله في المقاطع اللاحقة حيث يقول[6]:

امحـان قلبي كي جات متاصلة الوحش والحب فرقة رجالـي

نوبات صاحي وايامي قايلة والضحك لحظ النوبات يحلى لي
لحباب ذا الشدة جاتني طايلة وشتا ينسّي ذا التل من بالي

حيث يصور لنا الشاعر الأسى واللوعة التي يعانيها خاصة من خلال المقطع السابق، فمحن قلبه متصلة وألمه عميق لدرجة جعلت المعادلة عكسية عنده وهو المألوف في الغالب، وصلت به لدرجة أنه يحب الضحك في وقت النوبات والشدائد. فالشاعر يناجي نفسه ويقف تائها حائرا متناقضا.

4.2 صائت الضمة:

كانت الضمة أقل حضورًا مقارنة بالصائتين السابقين، وقد كانت مشحونة بدلالات الرفعة والعلو التي أوحت بها فخامتها الصوتية، من خلال ارتفاع مؤخرة اللسان نحو أقصى الحنك واللهاة. أما من ناحية الوضوح السمعي فهي أقل من الفتحة، ومن صفاتها أيضا الاستدارة.

وقد ارتبطت دلالاتها في القصيدة بتقلب الأوضاع العامة وتحوّلها من خلال المقطع التالي[7]:

غاب الحيا والميثاق من ناس جيلي لقشور
افناو ناس العشاق ومشاو ذوك الطيور
لوكان يرضو بتّفاق نهدّمو كم من صُوْر

فالشاعر يؤكد أن الأوضاع قد تبدلت وتغيرت، فالحياء والميثاق قد غاب وتحوّل، وأهل العشق قد انتهى عهدهم حيث شبههم بالطيور التي حلقت بعيدًا، ليعود الشاعر للافتخار والاعتزاز بخيرات وثروات وطنه، وكذا صفات الفارس الجزائري المغوار الذي يلبس أحلى حلّة وكأنه في عرس لا يهاب الموت، بل يتزين هو وجواده بأغلى وأثمن زيّ حيث يقول[8]:

نسعاو مال الطياق احرايم وعرب وقصور
عطوش بكور وسواق الزّهو مولاه ينور
القاط كمخة و تماق العَوْد لظوة و شبور

حصراه وين التبـــلاق خيري تبدّل بشـــــرور

فالشاعر يؤكد أنه يملك "مالْ الطياق" وكذا "الحرايم والقصور"، و"عطوش" (تعني الجِمال) و"بكور" (وصف للجمال بأنها فتية قوية) وأهم شيء كان يملكه الشاعر هو السعادة وراحة البال التي تظهر نورا للعيان من خلال عبارة (الزَّهو مولاه ينور).

أما الفارس فلباسه "كمخة"، وهي أجود أنواع القماش وأغلاه ثمنا آنذاك، ليعود الشاعر إلى نبرة الحسرة من خلال عبارة "حصراه" التي تؤكد أن كل هذا الخير كان في الماضي، و أن حاله اليوم قد تغيّر وتحوّل إلى شرور.

3. دلالة الصوامت في الديوان:

الحروف أو الصوامت هي "صوت يلتقي الهواء بحاجز، عند النطق به، والصامت في حاجة إلى حركة تسبقه أو تتبعه لكي يسمع بصفة جلية"[9].

1.3 الصوامت المجهورة:

- **صامت اللام:**

احتل الصامت (اللام) أعلى نسبة بحيث تواتر ذكره خلال 102 مرة في القصيدة، فإضافة إلى كونه قافية للقصيدة، فقد اقترن بكمّ هائل من الكلمات، حيث نجد مثلا: (لوطان- مهوَّل- حالي- قلبي- تخبّل- تخبالة- القنديل- تاويل- يحلالي- جهالة- القوّالة- قايلة- التل- سايلة- متاصلة...)،حيث نجده في الأفعال والأسماء على حد سواء ليدل على حالات مؤقتة تعتري الشاعر مثلا: مهوَّل- تخبّل- يحلالي- تميل، لأن الشاعر في حالة اغتراب نفسي وجسدي، يحنّ إلى وطنه، فيرفض واقعه أحيانا، ويتغنّى بالأيام الخوالي في أحايين كثيرة، فجاءت أغلب أبيات القصيدة على شكل مقابلة بين واقعين أحدهما مرّ بسبب البعد، والثاني يمثل حلاوة العيش والتنعّم بخيرات وطنه فيتغنى بها ويناشدها؛ حيث قال[10]:

امحان قلبي كي جات متاصلة الوحش والحب فرقة رجالي

نوبات صاحي وايامي قايلة والضحك لحظ النوبات يحلى لي

نوبة مغيّم ودموعي سايلة السير في وذني والحزن طالي

فهذه المقابلة زادت من عمق الصورة الشعرية، ووضحت أكثر التناقضات التي يعيشها الشاعر ويكابدها، فهو في لحظات النوبات والكروب والحزن يحلو له الضحك، وهو ضحك ممزوج بالحزن. ويضيف: (نوبات صاحي وأيامي قايلة)، والفعل صاحي من الصحو أي أن حالته النفسية هادئة متزنة، وفي أيام أخرى (مغيّم ودموعي سايلة) وهذا الغيم يخيم على روح الشاعر وحده، فيجعل دموعه تسيل مدرارًا بسبب الحزن والفراق الذي طال أمده.

إن سيطرة اللام وحضورها القوي في القصيدة يؤكد ذلك الصراع الذي يحيط بالذات الشاعرة، صراع بين ألم وأمل؛ بين واقع معيش مؤلم؛ وماض جميل يحمل صورة مشرقة تجعل الشاعر يستشف روائح العطور والمسك تنبع من أرض الوطن.

- **صامت القاف:**

القاف صوت لهوي شديد مهموس مرقق. وقد عدّ النحاة العرب والقراء كذلك القاف من الأصوات المجهورة، كما عدّ من أصوات القلقلة والاستعلاء والقلقلة[11]، ويمتاز صامت القاف بخصائص صوتية معينة، تكسبه دلالات تعبيرية. وظّفه الشاعر في نصه الشعري بكثرة (تسعة و ثلاثين مرة)، كما أنه يتصف بعمق مخرجه (اللهاة)، واستخدامه يولّد موسيقى قوية وعنيفة، فارتبط في القصيدة بدلالات تحمل معاني عميقة جدًا وقوية مثل: (قايد-قاضي-الميثاق- قصور- العشق- القرق- القوالة- نداق...)، حيث قال في المقطع التالي[12]:

غاب الحيا والميثـــاق من ناس جيلي لقشـــور
افناو ناس العشـــاق ومشاو ذوك الطيـــور
لوكان يرضو بتّفـــاق نهدّمو كم من صُـــورْ
انقوم عسكر ونـــداق بسيوف وجعب والكور

فصامت القاف في نهاية صدر الأبيات خلق نوعًا من الموسيقى الداخلية. إضافة إلى إضفاء نوع من القوة والصرامة والفزع لدى المتلقي؛ بخاصة في البيتين الأخيرين. فالشاعر هنا في موقف انفعالي حماسي، جعله يتحول إلى جيش بأكمله (عسكر)، يحارب ويقاوم، ويهدّم (نهدمو كمْ من صور)، كما يحمل الصامت القاف من خلال الفعل "نداق" دلالات

"الاصطدام والانفصال والقطع"[13]، وأكدت هذه الدلالة الأدوات المستخدمة في الفعل وهي السيوف والجعب والكور.

2.3 الصوامت المهموسة:

- **صامت التاء:**

إن صفة الهمس تتناسب مع انخفاض الصوت وهدوئه. وقد احتل صامت التاء الصدارة في الأصوات المهموسة في القصيدة؛ حيث تكرر ثلاثة وثلاثين مرّة من خلال الأسماء والأفعال التالية: (تفكر-تخبّل-تلغى-نتفكر-شعت-اعييت-نوبات-خلفوات-متقابلة...)، ونلاحظ أن التاء صوت أسناني لثوي شديد(إنفجاري) مهموس مرقّق[14]. إن سيطرة هذا الصوت مقارنة بالأصوات المهموسة الأخرى يوحي بالخشوع والخضوع لما يقتضيه، فالتيه والاغتراب والافتقاد والابتعاد، توحي بالضياع واللاّإنتماء، والعيش في غربة بسبب البعد المكاني الذي أثّر على نفسية الشاعر بشكل واضح، خاصة وأنه كان صاحب مكانة علمية مرموقة، فمن معلم إلى قاضٍ يحكم بين الناس ويفصل في قضاياهم، إلى أن فقدَ كل ذلك بسبب هجرته، ولكنه يبرّر أنه لم يفعل ذلك بإرادته، بل كان حكما ظالما من طرف الكولونيل "لاكريتال" وقد وصف هذه الأحداث في المقطع التالي[15]:

قلبي تفكر لوطان والهالــة راني مهوّل مانيش في حالي
قلبي تخبّل بالوحش تخبالة وعلاه يا مرو غــريب تلغى لي
نوبة نجالس شي ناس عقالة ونقول ذا لوّل خير من التالي
نـوبـة نـتـفـكّـتـر يـا لـمثالـة ويثور جرح المحنة ويربى لي
ومن بعد ما كنت عزيز في حالة ماني شي باخس بسومتي غالي

فالشاعر هنا يجسّد معاناته وألمه الروحي، وشوقه بسبب الغربة من خلال: (تفكر لوطان، تخبّل بالوحش، نوبة نتفكر...) فهذه الأفعال كلها تؤكد أن الشاعر لم يكن راضيا أو مرتاحًا بتواجده في الغربة، ويبرر لقومه وأهله أن هذا الغربة لم تكن بإرادته، بل بأمر من شخص غريب ذو سلطة قد فرضها عليه ويعاتبه على ذلك من خلال قوله: "وعلاه يامرو

غريب تلغى لي"، فهو يلوم هذا الرجل الغريب الذي أرسله في هذه المهمّة الشاقة التي جعلته يفقد مكانته بعد ما كان عزيزًا في قومه "بعد ما كنت عزيز في حالة".

- **صامتا السين والصاد:**

السين "صوت رخو مهموس مرقق، أما الصاد فهي نظير السين المفخم و هذا معناه أنه صوت صوت رخو مهموس مفخم"[16] كلاهما صفيري، وقد تواتر هذان الصامتان في القصيدة أربعة وعشرين مرة وعشر مرات على الترتيب، فقد وردا –خاصة السين- بنسبة معتبرة وشكّلا ظاهرة ذات بالٍ في القصيدة، أوحت إليها الكلمات التالية: (نجالس-ناس-بسومتي-الفرسان-همّيت-سايلة-ينسّي- نسعاو- سويد- يلبسوا...)، وكذلك: (فصالي- قصب- قصور- صاحي- صور- صفى...).

وصوتا السين والصاد من أصوات الصفير، التي عزَّزت الموسيقى الداخلية، وأعطت القصيدة طابعًا خاصًا. ولهذه الأصوات وظيفة دلالية؛ فكأنّ الصفير خارج من نَفَس الشاعر، ليدل على تأزّم حالته النفسية بشكل يتناسب مع الحزن والآهات والمأساة العميقة؛ حيث قال[17]:

أعييت صابر وسفاني راحلة همّيت من وطني أيام وليالي
أمحان قلبي كي جات متّاصلة الوحش والحب فرقة رجالي
نوبات صاحي وأيامي قايلة والضحك لحظ النوبات يحلى لي

فالشاعر يصف حاله في الغربة ومعاناته، ويبث أشواقه لأرض الوطن، فقد أعياه الصبر والانتظار ترقّباً لعودته لوطنه، مما جعله هزيل الجسم نتيجة التفكير أيامًا وليالٍ، ويرى أن أحزانه ومآسيه كانت متصلة مترابطة سببها الشوق والحنين والحب الذي يحياه ويعايشه ويكنّه لكل ما هو متعلق بالوطن وهو بعيد عنه، إضافة إلى فراق أصدقائه، "ورجاله"؛ هنا هم من كان يجالسهم ويسامرهم ويسهر معهم، إضافة إلى محبيه ومؤيديه بسبب مكانته المرموقة آنذاك. كما أن الشاعر يتأسف لحاله، وكيف أنه لا يعرف لحلاوة العيش طريقا، خاصة مع النزاعات الداخلية التي كان يتكبدها لوحده، مما جعل لحظات

الصحو والهدوء والراحة لا يحسّها إلا أحيانا قليلة. وما يؤكد تأزم الوضع هو الضحك لحظة النوبات والشدائد.

- **صامت الراء:**

إن اتصاف صامت الراء بصفة التردد أو التكرار يميزه عن غيره من الأصوات، حيث نجده في القصيدة حاضرًا تسعة و عشرين مرة، مما أضفى بحضوره الملحوظ تيارًا إيقاعيا فاعلاً في النص من خلال الكلمات التالية: (الزهور- الفرسان- سهرات- تقاصر- السير- الطيور- بكور- ينور- يمرار- يعرف- رخص...)، فقد توافقت صفاته مع مدلول البنى الإفرادية، وموضعها في الأسطر الشعرية؛ حيث نجد مثلاً[18]:

قلبي تفكر لوطـــان الزهور وركوب الخيـــل

ارعيتي والفرســـان خودات في حراج تميـــل

تكرر المقطع: "قلبي تفكر لوطان" مرتين في القصيدة، حتى تصدر القصيدة في بدايتها، وكذلك المقطع الثاني منها، ليتكرر المقطع ومعه الفعل "نتفكر"، ففعل التذكر والاسترجاع لدى الشاعر حاضر دائما، ويتكرر دومًا في ذاكرته؛ حيث تذكر الزهور التي لها رائحتها وعبيرها الخاص في الوطن. كما تذكّر الشاعر ركوب الخيل، وفعل الركوب هو فعل متجدد ومتكرر دائما. كما تذكر الشاعر رعيته وهم أحبابه وأصدقائه والمقربين إليه، وكذلك تذكر الفرسان بكل ما يحملونه من صفات الشجاعة والبسالة والتضحية. وقد حذف الفعل "تفكر" ولكن السياق واضح جدا للدلالة أيضا على استمرار الفعل وديمومته. وقال في مقطع آخر[19]:

قهوة وكرسي والناس متقابلة والشراب بعد ما يمرارّ يحلالـي

ولّيت عاشر شي ناس جهالـة وقليل من يعرف لغوة قوالـي

يهدو القرق ويلبسو النعالـة والراس عريان تقول هُبالـي

لقد حقق صامت "الراء" بحضوره في المقطع السابق نغما وجرسًا موسيقيًا، إضافة إلى دلالات التكرار، فالشاعر يؤكد أن الشراب المرّ يحلو له دائماً بصفة متكررة، بما أنه في وطنه يتنفس هواءه وينعم بخيراته، ولكن حاله هذه تبدلت، فأصبح يعاشر أناساً

جهلة لا يفهمون لغته ولا كلامه إلا قليلاً منهم "قليل من يعرف لغوة قوالي" وهذا ما زاد من حزن الشاعر وحسرته، فهؤلاء الناس حاضرون دومًا في حياته بحكم التعامل معهم وهو في الغربة. إضافة إلى صفاتهم التي لا تتناسب مع منشأ الشاعر وجذور تربيته الدينية التي أخذها عن أبيه معلم القرآن، فهؤلاء الناس لا يشبهونه أبدا؛ فهم يهذون ويتكلمون كلاما باطلا، وهو ما عبّر عنه بكلمة "القرق"، ورد في معجم اللغة العربية العاصرة: "قرق الشخص: هذى وتكلم كلاما باطلا"[20]، كما أن "الراس عريان" أي أنهم لا يعتمّون بعمامة تغطي الرأس (وهي رمز للمروءة) وهذا ما لا يرضاه الشاعر، بل وتضاعف من غربته لتجعلها غربة روحية دينية... تزيده ألمًا وحسرة وشوقا وحنينا.

- **صامت النون:**

يوصف صوت النون أنه من صوامت الغُنّة، كما أنه صوتٌ نوَّاح يلجأ إليه الشعراء للتعبير عن حالات الحزن والأسى، كما يمتاز أيضًا بقوة الوضوح السمعي وسهولة الانتشار، لذا تكرر هذا الصوت ثلاثة وثلاثين مرة، وحضوره كان قويًا من خلال: (مانيش-نجالس-نتفكّ-لوطان- نآمر- يبان- ينطح- متحزمين- الحزن-النعالة- يريدني- أمحان- الدخان- للفان- بني تالة...) فخرجت هذه الكلمات مدوية صارخة مشحونة بالمرارة والحرقة؛ حيث قال[21]:

حصراه كنت بقومي وخيالـة وفعلت كي نعج سويد بامحالي
خوذات بالعشق حنان هبالـة بعطور وروايح مسك وغوالي
وطني سفيزف وأهلي بني تالة الحكم في بلعبّاس يهوى لـي
قهوة وكرسي والناس متقابلة والشراب بعد ما يمرارّ يحلالـي

يبين الشاعر بوضوح أنه يشتاق لوطنه (سفيزف) وبالضبط لأهله وأصدقائه في (بني تالة)، و"سفيزف" من المناطق التي ظهرت حوالي 1870م نتيجة المجمعات السكنية حول بساتين التين وثمار السفيزف، وكانت معروفة خاصة لدى عابري الطريق من بلعباس إلى معسكر، لذلك سميت نسبة إلى ثمار السفيزف. كما يتغنى الشاعر بحكم ولاية سيدي بلعباس، إلا أنه يتحسّر على مكانته السابقة بين قومه خاصة وأنه كان معلمًا للقرآن ثم

قاضيا بمسقط رأسه، إلى أن احتلّ مكانا مرموقًا بين بني عامر، وبعد عودته من فاس (المغرب) وجد أن مكانته وهيبته قد ضاعت، فشبّه حاله بـ"نعج سويد" والنَّعَجُ والنُّعُوجُ هو: الابْيِضاضُ الخالص[22]، والسُّوِيدْ في الموروث الشعبي: هو حبوب كروية الشكل صغيرة سوداء اللون تحصد مع القمح والشعير، تستعمل لعلاج مرض اليرقان أو الصّفّار كما يعرف بالعامية (في الفصحى داء الصفراء أو الريح الأصفر). و"نعج السويد" هو ما تحوّل من البياض الخالص إلى الأسود تدريجيا، وهذا هو حال الشاعر بعد عودته للوطن من بعد غربته وفقدانه لهيبته السابقة وتقدير الناس له، ربما لاعتقادهم أنه من الموالين لفرنسا بسبب توليه منصب القيادة على "أولاد بالغ".

فكان صامت النون متواترًا بكثرة، يحمل دلالات البكاء على مكانة مرموقة كانت في الماضي، وواقع مرير يعيشه في الحاضر بسبب فقدانه لتلك الألفة واللَّمة التي كان يحياها مع أصدقائه، والتي تجعل من الشراب المرّ يحلو للشاعر، مادام مجتمعا ومتقابلا مع أناس يحبهم ويحبونه، وهذا الألم يعصر قلبه مرارة ولوعة.

4. خاتمة:

درس هذا المقال العلاقة بين الصوت والدلالة، لذا جاء عنوانه: **الأبعاد الدلالية للبنية الصوتية في قصيدة (قلبي تفكّر لوطان) لمصطفى بن إبراهيم**. وهو نص ينتمي إلى الأدب الشعبي الجزائري صيغ بلهجة الشاعر المحكية.

وبعد تحليل هذا النص من الناحية الصوتية، أعطت نتائجه إجابة عن الإشكالية المطروحة: **"كيف تسهم الأصوات في إنتاج الدلالة؟"** إذ أن الاختيارات الصوتية الأسلوبية للشاعر، والتي هندس من خلالها بنية نصه، أظهرت تأثير الحالة النفسية وانعكاسها على بنية النص انتاجا واستقبالا. وذلك **ما** صحح الفرضية التي طرحت في المقدمة: **"الحالة**

النفسية للشاعر تؤثر في البنية اللغوية للنص، وتحليل هذه البنية يؤدي إلى فهم النص". وهذا ما تؤكده نتائج الدراسة الآتية:

1- تنوع استخدام الصوامت في القصيدة، وكان توظيفها موفقا من طرف الشاعر، حيث جاءت متناسبة مع دلالاتها وأبعادها.

2- اعتمد الشاعر على صامت الفتحة أكثر مقارنة بالصامتين الآخرين لأنه وجد من خلاله متنفّسا للتعبير عن آلامه وحسرته نتيجة البعد عن أرض الوطن والشوق الكبير له.

3- تنوعت الصوامت على اختلاف صفاتها (جهر، همس، تردد...) على طول القصيدة، وكان الحضور الأقوى لصامت اللام الذي يتناسب كثيرا مع المدلولات العامة المستوحاة من القصيدة ليؤكد ذلك الصراع الذي يحيط بالذات الشاعرة، بين الحنين للماضي ومرارة الحاضر.

4- استطاع الشاعر من خلال هذه القصيدة أن ينقل لنا ملخصّا عميقا لتجربته في أرض الغربة، وما كابده من شوق وحنين، وما ترتب عنها من نتائج سلبية تمثلت أساسا في فقدانه لمكانته وهيبته بعد عودته للوطن. وهذا ما جعل نفسيته متعبة، وقد جسّد هذه المعاني من خلال نبرة الحسرة والأسى التي كانت ملازما عاما لجو القصيدة.

5- لقد جسّد الصوت المعنى الذي لا قيام له بدونه، ومن ثمّ فهو مؤثّر فيه باعتبار القيم التمييزية للأصوات، فكل تغيير يلحق بصوت من أصوات الكلمة يجرّ وراءه تغييرا على مستوى الدلالة.

5. التوصيات والاقتراحات:

-تنظيم ندوات وأيام دراسية للطلبة في الجامعات الجزائرية للتعريف أكثر بالشاعر مصطفى بن ابراهيم.

-التعريف بقصائده ودراستها من جوانب مختلفة.

-استكمال دراسة القصيدة "قلبي تفكر لوطان والهالة" بالتطرق إلى جوانب الدراسة الصوتية الأخرى كالنبر والنغمة والتنغيم...

الهوامش والإحالات:

[1]- ابن جني، 1954، سر صناعة الإعراب، تح: مصطفى السقا وآخرون، مطبعة البابي الحلبي وأولاده، مصر، ج1، ص 19.

[2]- حركات مصطفى، 1998، الصوتيات والفونولوجيا، المكتبة العصرية للطباعة والنشر، بيروت، ص57.

[3]- ينظر: حركات مصطفى،1998، اللسانيات العامة وقضايا العربية، الدار الثقافية للنشر/ المكتبة العصرية، صيدا، بيروت، ط1، ص22.

[*] الفونيم هو أصغر وحدة فونولوجية في الدرس اللساني المدروس.

[**]مصطفى بن إبراهيم شاعر شعبي ولد حوالي سنة 1800 بقرية بوجهة بناحية سيدي بلعباس. زاول مهنة أبيه كمعلم قرآن ثم أصبح قاضيا بمسقط رأسه. عيّنته الإدارة الفرنسية في منصب خليفة ثم قائدا على أولاد سليمان، إلى أن احتل مكانة مرموقة بين بني عامر. ولاّه الكولونيل "لاكريتال" منصب القيادة على أولاد بالغ واستقر بينهم وتزوج فيهم، ثم هاجر إلى فاس المغربية وعاش فيها ما يقارب خمس سنوات، ولكنه بقي في اتصال دائم مع ذويه في سيدي بلعباس. رجع إلى مسقط رأسه حيث ركن إلى الهدوء التام، والظاهر أن همومه وصلت إلى نهايتها من ضياع مكانته بين أهله واغترابه عن الوطن، وتوفي سنة 1867 ودفن في بطاح المسيد (بسيدي بلعباس) ما بين الأقباب ولم يوضع على قبره بنيان كما رغب في ذلك في إحدى قصائده، سجل الشاعر أهم الأحداث التي مرّ بها في حياته وأوردها في أبيات شعرية فانتقلت بين الناس حتى شاع ذكره بين القرى والبوادي، وراح الشعراء يحذون حذوه، فقد كان أوّل من صاغ لهم الخطوط الأولى للقصيدة البدوية. ينظر: ويكيبيديا العربية: مصطفى بن إبراهيم (شاعر). آخر تعديل للصفحة كان يوم 2 يوليو 2022، الساعة 01:48. على الرابط:

https://ar.wikipedia.org/wiki/%D9%85%D8%B5%D8%B7%D9%81%D9%89_%D8%A8%D9%86_%D8%A5%D8%A8%D8%B1%D8%A7%D9%87%D9%8A%D9%85_(%D8%B4%D8%A7%D8%B9%D8%B1)

[***] غناها خليفي أحمد وآخرون من الصحراء الكبرى.

[****] سميت سْفيزَفْ بهذا الاسم نسبة إلى فاكهة السَّفيزَفْ أو العُنّاب وهو تمر الصين، ويسمى بالأمازيغية أَزُقاغْ، زْفيزَفْ أو سْفيزَفْ، جيجيبْ، من أحب أنواع الفاكهة لدى الجبايلية، كانوا يدخرونه للمناسبات: العيد، يَنّايَرْ...إلخ، لأنه رمز الخير والبركة.

[4]- لم تذكر القصيدة في مرجع بعينه، فكان المرجع الوحيد في توثيق النص الشعري هو موقع: ويكيبيديا العربية: مصطفى بن إبراهيم (شاعر). آخر تعديل للصفحة كان يوم 2 يوليو 2022، الساعة 01:48. على الرابط:

https://ar.wikipedia.org/wiki/%D9%85%D8%B5%D8%B7%D9%81%D9%89_%D8%A8%D9%86_%D8%A5%D8%A8%D8%B1%D8%A7%D9%87%D9%8A%D9%85_(%D8%B4%D8%A7%D8%B9%D8%B1)

[5]- موقع ويكيبيديا العربية: مصطفى بن إبراهيم، (مرجع سابق).

[6]- المرجع نفسه.

[7] - المرجع نفسه.

[8]- المرجع نفسه.

[9]- حركات مصطفى، الصوتيات والفونولوجيا، ص58.

[10]- موقع ويكيبيديا العربية: مصطفى بن إبراهيم، (مرجع سابق).

[11]- ينظر: الموسوي مناف مهدي، 1997، علم الأصوات اللغوية، عالم الكتب، بيروت -لبنان ط1، ص83.

[12]- موقع ويكيبيديا العربية: مصطفى بن إبراهيم، (مرجع سابق).

[13]- الفاخري صالح سليم عبد القادر، (د.ت)، الدلالة الصوتية في اللغة العربية، المكتب العربي الحديث، الإسكندرية، ص 151.

[14]- ينظر: الموسوي مناف مهدي، علم الأصوات اللغوية، ص 61.

[15]- موقع ويكيبيديا العربية: مصطفى بن إبراهيم، (مرجع سابق).

[16]- عبد التواب رمضان، 1985، المدخل إلى علم اللغة ومناهج البحث اللغوي، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط2، ص 47.

[17]- موقع ويكيبيديا العربية: مصطفى بن إبراهيم، (مرجع سابق).

[18]- المرجع نفسه.

[19]- المرجع نفسه.

[20]- ينظر: عمر أحمد مختار، 2008، معجم اللغة العربية المعاصرة، عالم الكتب، القاهرة، ط1، مج1، ص1803. (مادة ق ر ق)

[21]- موقع ويكيبيديا العربية: مصطفى بن إبراهيم، (مرجع سابق).

[22]_ ينظر: الفيروز آبادي، 2005، القاموس المحيط، تح: محمد نعيم العرقسوسي، مؤسسة الرسالة، بيروت - لبنان، ط8، ص207 (مادة ن ع ج).

الملحق: قصيدة (قلبي تفكّر لوطان) لسيدي مصطفى بن ابراهيم

قلبـــي تفكـــر لوطـــان والهالـــــة رانـــي مهـــوّل مـــانيش فـــي حالـــي

قلبـــي تخبّـــل بـــالوحش تخبالـــــة وعـــلاه يـــا مـــرو غريـــب تلغـــى لـــي

نوبـــة نجـــالس شـــي نـــاس عقالـــة ونقـــول ذا لـــوّل خيـــر مـــن التالـــي

نوبـــــة نتفكّـــــر يـــــا لمثالـــــة ويثـــور جـــرح المحنـــة ويربـــى لـــي

ومـن بعـد مـا كنـت عزيـز في حالـة ... مـاني شـي بـاخس بسـومتي غالـي

شـاني مـع الطلبـة شـعت بمسالـة ... ونـآمر الجـن وعـلاش يهـوى لـي

ولّيـت قاضـي عنـدي العدالـة ... ونفـكّ بـين الشـرّاع بفصالـي

اعييـت قايـد بطبـول زعالـة ... والحكـم يظلـم مـا درت بفعالـي

أهلـي وناسـي فـي الشـوم رجّالـة ... اشـحال مـن فـجّ هـداوه خالـي

اركـاب م البعـد يبـان شعّالـة ... والقـاط كمخـة والسـرج فيلالـي

بـارود يخـرج م الجعـب يتكالـى ... شـبان تـنطح في الشـوم بمشالـي

******

قلبـي تفكـر لوطـان ... الزهـور وركـوب الخيـل

ارعيتـي والفرسـان ... خـودات فـي حـراج تميـل

متحـزّمين للّفّـان ... شـبان يلغـو بكحيـل

إذا انتصـب اليـدان ... قـلال وقصـب تاويـل

وتقاصـر والإيـوان ... وفـرايج طـول الليـل

سبســـــي وكيـــــف الدخـــــــان ســـــهرات بضـــــي القنديـــــــل

امشـــــي نقـــــار العديـــــــان مـــــا فـــــات الزهـــــو قبيـــــــل

اخلـــــي بلاصـــــي ولا موالـــــي ملكـــــوه مـــــن لا يرضـــــاو بقوالـــــي

******

اعييـــت صـــابر وســـفاني راحلـــة هسّـــيت مـــن وطنـــي ايـــام وليالـــي

امحـــان ڤلبـــي كـــي جـــات متاصلـــة الـــوحش والحـــب فرقـــة رجالـــي

نوبـــات صـــاحي وايـــامي قايلـــة والضـــحك لحـــظ النوبـــات يحلـــى لـــــــــــــــــــــــــــــي

لحبـــاب ذا الشـــدة جـــاتني طايلـــة وشـــتا ينسّـــي ذا التـــل مـــن بالـــي

نوبـــة مغـــيّم ودمـــوعي سايلـــة الســـير فـــي وذنـــي والحـــزن طالـــي

******

غـــــاب الحيـــــا والميثـــــاق مـــــن نـــــاس جيلـــــي لقشـــــور

افنـــــاو نـــــاس العشـــــاق ومشـــــاو ذوك الطيـــــــــور

لوكـــــان يرضـــــو بتّفـــــاق نهـــــدّمو كـــــم مـــــن صـــــور

انقـــــوم عســـــكر ونـــــــداق بســـــيوف وجعـــــب والكـــــــور

نســـــعاو مـــــال الطيـــــــاق احـــــرايم وعـــــرب وقصـــــــور

عطـــــوش بكـــــور وســـــــواق الزهـــــو مـــــولاه ينـــــــور

لحـــــراج حمـــــام فـــــــراق وكحيـــــل يلغـــــى بالجـــــــور

القـــــاط كمخـــــة وتمـــــــاق العَـــــوْد لظـــــوة وشبـــــــور

حصـــــراه ويـــــن التبـــــــلاق خيـــــري تبـــــدّل بشـــــــرور

******

بعـــد الحصـــن والقومـــان تتشالـــى شـــوّاش وخلفـــوات اعمالـــــي

حصـــراه كنـــت بقـــومي وخيالـــة وفعلـــت كـــي نعـــج ســـويد بامحالـــي

خـــوذات بالعشـــق حنـــان هبالـــة بعطـــور وروايـــح مســـك وغوالـــي

وطنـــي ســـفيزف واهلـــي بنـــي تالـــة الحكـــم فـــي بلعبّـــاس يهـــوى لـــي

قهـــوة وكرســـي والنـــاس متقابلـــة والشـــراب بعـــد مـــا يمـــرارّ يحلالـــي

ولّيـــت عاشـــر شـــي نـــاس جهالـــة وقليـــل مـــن يعـــرف لغـــوة قوالـــي

يهـــدو القـــرق ويلبســـو النعالـــة والـــراس عريـــان تقـــول هُبالـــي

زرت شـــــيوخ ووليـــــا وبدّالـــــة وطلبـــــت راع الحمـــــرا البدّالـــــي

يريـــدني كيـــف قبيـــل بـــن لالـــة الخيـــر مـــولاه يجـــود مـــن تالـــي

قولـــو غْلَلِّـــى صـــفّى يـــا القوّالـــة شـــوفوه كيـــف رخـــص بعـــدما غالـــي